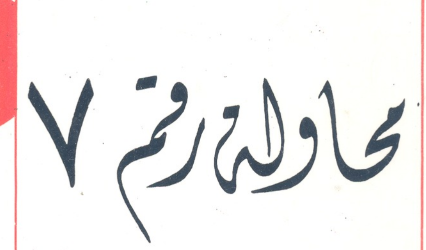




الطبعة السابعة



دار العودة - بيروت

محاولة رقم ٧

محمود درويش

محاولة رقم ٧

١٩٧٣

دار العودة - بيروت

١٩٩٣/١٠/١

الطبعة السابعة

يطلب من دار العودة - بيروت
كورنيش المزرعة - بناية ريفييرا سنتر
تلفون: ٣١٨١٦٥ - ٨١٥٣٣٥
ص. ب: ١٤٦٢٨٤ / برقياً: العودة

كأني أحبك

لماذا نحاول هذا السفرْ
وقد جرَّدتني من البحر عيناكِ
واشتعل الرمل فينا . . .
لماذا نحاولُ ؟
والكلماتُ التي لم نقلها
تُشرِّدنا . .
وكل البلاد مرايا
وكل المرايا حجرْ
لماذا نحاول هذا السفرْ ؟
هنا قتلوكِ
هنا قتلوني .
هنا كنتِ شاهدةَ النهر والملحمهْ

ولا يسأم النهرُ
لا يتكلَّمُ
لا يتألَّمُ
في كلٍّ يوم لنا جُثَّةٌ
وفي كُلِّ يوم لهم أوسمهْ
هنا وقف النهر ما بيننا
حارساً
يجعل الضفتينْ
توأمين
بعيدين، كالقُرب، عنّا
قريبين، كالبُعد، منّا
ولا بُدَّ من حارسٍ
آهِ، لا بُدَّ من حارس بيننا.
كأنَّ المياهَ التي تفصل الضفتين
دمُ الجسدينْ
وكنّا هنا ضفتين
وكنّا هنا جسدين
وكلّ البلاد مرايا
وكلّ المرايا حجرْ

لماذا نحاول هذا السفرْ ؟

كأنَّ الجبالِ اختفتْ كُلُّها
وكأنّي أحبّكِ
كان المطارُ الفرنسيُّ مزدحماً
بالبضائع والناسِ .
كُلُّ البضائع شرعيَّة
ما عدا جسدي
آه . . يا خلف عينيك . . يا بلدي
كنتُ ملتحماً
بالوراء الذي يتقدّمُ
ضيَّعتُ سيفي الدمشقيَّ مُتّهماً
بالدفاع عن الطينِ
ليس لسيفيَ رأيٌ بأصلِ الخلافةِ
فاتهموني . . .
علَّقوني على البُرجِ
وانصرفوا
لترميم قصر الضيافة . .
كأنّي أُحبُّكِ حقاً

فأغمدتُ ريحاً بخاصرتي
كنتِ أنت الرياحَ وكنتِ الجناح
وفتشتُ عنك السماء البعيدةْ
وقد كنتُ أستأجر الحُلْمَ
ـ للحلم شكلٌ يُقلِّدها ـ
وكنتُ أُغنّي سدى
لحصان على شجرْ
وفي آخر الأرضِ أرجَعَني البحرُ
كُلّ البلاد مرايا
وكل المرايا حجرْ
لماذا نحاول هذا السفرْ ؟

تكونين أقربَ من شفتيّ
وأبعدَ من قُبلة لا تصلْ
كأنّي أحبُّك
كان الرحيلُ يطاردني في شوارع جسمكْ
وكان الرحيل يحاصرني في أزقَّة جسمكْ
فأتركُ صمتي على شفتيك
وأترك صوتي على درج المشنقةْ

كأنّي أحبُّكِ

كان الرحيلُ يخبِّئني في جزائر جسمكْ

ـ واسعٌ ضيقٌ هذا المدى ـ

والرحيل يخبِّئني في فم الزنبقهْ.

أعيدي صياغةَ وقتي

لأعرف أين أموت سدى

ـ مَرَّ يومٌ بلا شهداءْ ـ

أعيدي صياغة صوتي

فإنَّ المغنّي الذي ترسم الفتياتُ له صورةً

صادروا صوته

ـ مَرَّ يومٌ بلا شعراءْ ـ

وبين الفراغين أمشي إليكِ وفيكِ

وأولدُ من نطفةٍ لا أراها

وألعبُ في جُثّتي والقمرْ

لماذا نحاول هذا السفرْ ؟

وكل البلاد مرايا

وكل المرايا حجرْ

لماذا نحاول هذا السفر ؟

النزول من الكرمل

ليومٍ يُجَدِّدُ لي موعدي، قلتُ للكرمل : الآن أمضي .
وينتشرُ البحر بين السماء ومدخلِ جرحي
وأذهبُ في أُفُقٍ ينحني فوقنا، ويُصلّي
لنا، أو يُكَسِّرُنا. هذه الأرض تشبهنا
حين نأتي إليها. وتشبهنا حين نذهب عنها.
تركتُ ورائي ملامحها، واسمُها كان يمشي أمامي
يُسمّي ملامحَها وانفجاري. تركتُ سرير الولادهْ
تركتُ ضريحاً مُعدّاً لأيِّ كلام . .
تركتُ التي أوجَعَتْهَا ذراعي. تركت التي أوجعتني يداها.
تُفَتِّشُ عن عاشقٍ بعد خمس دقائق من هجرتي .

ليومٍ يُجَدِّدُ لي موعدي، قلتُ للكرمل : الآن أمضي

تمرُّ الرصاصةُ فوق جبيني ، وتجمعني مثلما تجمع القبلةُ الشفتينْ

وتـولـدُ رمّـانـةٌ في الصخـور التي دجَّنتْني ، وتجعلني عـاشقين بعيداً . . بعيداً .

وينتشر البحر بين السماء ومدخل جرحي

تخيَّلتُ أنكَ مُتَّكئي

وسئمتُ العلاقة بين المسامير والخشبَهْ

وحين ترجَّلتُ عن قمَّة الرمح والجرح أمسكتُ شيئاً

فَكَانَ حذاءَ الحرسْ

يكمِّلني هابطاً هابطاً . .

منذ ذاك النهار المبكِّر أبحث عن موطىء القدمين

وأتبعُ نهراً، ولا أتبع الموجَ

هل أستردُّ زفيري ! .

يُقاسمُني عسكريٌّ جراحي

ويحرسها كي ينال وساماً

ويمنعني من مواصلة الموتِ، يأخذ نصف جراحي

ويترُكُ نصفاً لأمن الأممْ .

يهزُّ أصابع كفّي
فتسقط ذكرى،
رصاصٌ قديم،
صنوبرةٌ،
ثمر فاسدٌ،
تهمةٌ،
أسئلهْ

يُفتِّشُ كفِّيَ ثانيةً، فيصادر حيفا التي هرَّبتْ سُنْبلهْ
ويا أيها الكرملُ،
الآن تقرع أجراس كل الكنائسْ
وتعلن أنّ مماتي المؤقَّت لا ينتهي دائماً، أو ينتهي مَرَّةً.
أيها الكرمل، الآن تأتي إليك العصافيرُ من ورق
كنتَ لا فرق بين الحصى والعصافيرِ،
والآن بَعْثُ المسيح يُؤجَّل ثانيةً
أيها الكرمل، الآن تبدأ عطلةُ كل المدارس
وتُنشدني الآن فيروز
والآن نأخذ أنبوبةً من حبوبٍ تُسيل الدموع،
فنبكي على جبل طائرٍ

أيها الكرمل، الآن يجعلنى ضابط آخرٌ عرضة للخلود!

بَعُدنا عن الشجرِ. البحرُ فاصلةٌ بيننا
وها نحن بين الطهارة والإثم شيئان يلتحمان وينفصلان
كأنَّ الأحبَّة دائرةٌ من طباشيرَ
قابلةٌ للفناء وقابلة للبقاء.
وها نحن نحمل ميلادنا مثلما تحمل المرأةُ العاقرُ الحُلُما
وها أنتَ مئذنة الله حيناً
وقُبَّعة لجنود المظلّات حيناً
وها أنتَ يا كرملي كلُّما
جرَّدتني الحروبُ من الأرض أعطيتَني حُلُما.
وها أنا أعلن أن الزمان تغيَّرَ:
كانت صنوبرةٌ تجعل الله أقربْ
وكانت صنوبرة تجعل الجرح كوكبْ
وكانت صنوبرة تُنجب الأنبياءْ
وتجعلني خادماً فيهمُ
أيها الكرمل المتشعِّب في كل جسمي
لماذا تحمّلني كل هذي المسافاتِ

والبحرُ فاصلةٌ بيننا ؟.

أوقَفَتْني فتاةٌ معبَّأة بالدوالي
وكانت تغنّي على طُرُق الشامِ :
يا ليت دالية واحدة
لم تسافر معي . . فأعود إليها
قبَّلتني فتاةٌ لأني لفظت اسم كرملها في مُكَبِّر صوت،
فجاءت إلى فندقي لتقول «أحبُّك»، والتجأتْ
لاسمه في ذراعي .
ـ وماذا يقول الجبلْ ؟
* بكى قصبٌ في الغدير
وكان الغدير مرايا
فلم ينطق الجبلُ
ـ وهل رحلوا ؟
* تصبَّبتِ الريحُ من جبهتي
فمسحتُ الرياحَ كما تمسحين العرقْ . . .
تذكّرتُ أني نهضت صباحاً
وكانت شهادةُ ميلاد أمّيَ قابلة للنقاش
وكانت أناشيد أهلي العربْ

تُرَتِّبُ أمتعة اللاجئين،
وتبني جسور العبور،
وصارت فلسطين أقربْ،
فاختلف اللاجئون على موسم القمح والبرتقال.

أوقفتني فتاةٌ معبَّأةٌ بالدوالي
وكانت تغنّي على طُرُق الشامِ :
يا ليت دالية واحدة
لم تسافر معي.. فأعود إليها
وسافرتُ -
يا أيها الكرملُ، البحرُ، والعشبُ، والنارُ
يا صخرة الفرح العائمةْ
وصمَّمتُ جلدي قميصاً لأخفيَ آثار طعنتك النادمهْ
فأنكرَني العسكريُّ
وكنتُ على باب أمي هناك أنادي دمشقْ
فتسمع نبض دمي في حفيف صنوبركَ المبتعدْ
وتغسلني دجلةُ الخير حين أموت من الوجد شوقاً إلى
أرض بابل.
وها أنذا الآن

حين دخلتُ إلى الجامع الأمويِّ تساءل أهل دمشق :
مَنِ العاشقُ المغتربْ ؟
وكانت مياه الفرات ونافورة النيل تحذف آثار زنزانتي
عن ضلوعي
وحين وقفتُ على النيل يوماً، وشاطىء دجلة يوماً
تساءل كل الذين رأوا دهشتي
مَن السائحُ المغتربْ ؟!

تركتُ الحبيبة ـ لم أنسها ـ في غروب الشجرْ
تطرِّز من زَبَد البحر منديلها وضمادي
توهَّمتُ أنّ السموات أبعدُ من يدها عن جبيني
وأوهمتُها أن قلبي يصلْ
وأنّ يدي تنتقلْ
إلى جُثّة ضائعهْ
تركتُ الحبيبة ـ لم أنسها ـ عند سفح الجبل
تعيرُ العصافيرَ ألوانها
وكانت يداها ينابيعَ من كلِّ لونٍ وما اشتُقَّ منه
ولكنني كنتُ أشعر أن الينابيع كانت معرَّضة للجفاف
وأنّ فمي ينتقل

إلى لُغَة ثانية
تركتُ الحبيبة لم أنسها
تركت الحبيبة
تركت . . .

أحبُّ البلاد التي سأحبْ
أحب النساء اللواتي أحبْ
ولكن غصناً من السرو في الكرمل الملتهبْ
يُعادل كل خصور النساء
وكلَّ العواصم

أحبُّ البحار التي سأحبُّ
أحبُّ الحقول التي سأحبُّ
ولكنَّ قطرةَ ماءٍ على ريشِ قُبَّرةٍ في حجارة حيفا
تعادل كل البحار
وتغلسني من ذنوبي التي سوف أرتكبُ

أدْخِلُوني إلى الجنَّة الضائعة
سأطلق صرخةَ ناظم حكمت :
آه . . . يا وطني ! . . .

الخروج من ساحل المتوسط

- ١ -

سيلٌ من الأشجار في صدري
أتيتُ. . . اتيتُ
سيروا في شوارعِ ساعدي تَصِلوا.

وغزّةُ لا تصلّي حين تشتعلُ الجراح على مآذنها،
وينتقل الصباح إلى موانئها، ويكتمل الردى فيها.

أتيتُ. . . أتيتُ
قلبي صالحٌ للشربِ
سيروا في شوارع ساعدي تَصِلوا
وغزّةُ لا تبيع البرتقال لأنه دمُها المعلَّبُ

كنتُ أهرب من أزقَّتها،
وأكتبُ باسمها موْتي على جميزة،
فتصيرُ سيِّدةً وتحمل بي فتىً حراً.
فسبحان التي أسْرَتْ بأوردتي إلى يدها !.

أتيتُ. . . أتيتُ
غزّةُ لا تصلّي.
لم أجد أحداً على جرحي سوى فمها الصغير.
وساحلُ المتوسط اخترق الأبد. .

- ٢ -

لا توقفوني عن نزيفي !
ساعةُ الميلاد قَلّدَتِ الزَّمانَ، وحاوَلَتْني
كنتُ صعباً ـ حاولتني
كنتُ شعباً ـ حاولتني مرة أخرى. .
أرى صفاً من الشهداء يندفعون نحوي، ثم يختبئون في صدري ويحترقون.

ما فَتَكَ الزمانُ بهم، فليس لجثّتي حدٌّ. ولكني
أحسُّ كأن كلَّ معارك العرب انتهتْ في جثتي،
وأودُّ لو تتمزق الأيام في لحمي ويهجرني الزمان،

فيهدأ الشهداءُ في صدري ويتفقون.
ما ضاق المكانُ بهم، فليس لجثتي حدّ، ولكنّ
الخلافة حصَّنَتْ سور المدينة بالهزيمةِ، والهزيمةُ
جدَّدتْ عمر الخلافة.
لا توقفوني عن نزيفي
ساعةُ الميلاد قلّدت الزمان وحاولتني
كنتُ صعباً ـ حاولتني مرة أخرى
أرى صفاً من الشهداء يندفعون نحوي
لا أحدْ !.

ـ ٣ ـ

وتقاسمتْني هذه الأممُ القريبةُ والبعيدةُ.
كلُّ قاضٍ كان جزّاراً
تدرَّج في النبوءة والخطيئةِ
واختلفنا حين صار الكل في جزءٍ،
وصار الجرحُ وردتَنا جميعاً
وابتعدنا...
إذهبْ إلى الموت الجميلِ ـ
ذهبتُ.
وحدي كنتُ

قلتم: نحن ننتظر الجنازة بالأكاليل الكبيرة والطبولِ،
ونلتقي في القدسِ. . .
ليتَ القدس أبعدُ من توابيتي لأتَّهم الشهودَ
وما عليك! ذهبتَ للموت الجميل
ومدينةُ البترول تحجز مقعداً في جنة الرحمن - قلتم لي
وطوبى للمُموِّل والمؤذِّن. . . والشهيد!

- ٤ -

تَعِبَ الرثاءُ من الضحايا
والضحايا جَمَّدتْ أحزانها
أوّاه! مَنْ يرثي المراثي؟
لستُ أدري أيُّ قافية تحنِّطني، فأصبح صورة في معرض
الكتب القريب.
ولستُ أدري أيُّ إحصائيَّة ستضمُّني. . .
يا أيها الشعراء. . . لا تتكاثروا!
ليست جراحي دفتراً.
يا أيها الزعماء. . . لا تتكاثروا!
ليست عظامي منبراً.
فدعوا دمي - حبرَ التفاهم بين أشياء الطبيعة والإله

ودعوا دمي ـ لغة التخاطب بين أسوار المدينة والغزاة.
دمي بريدُ الأنبياء.

ـ ٥ ـ

وأعود من تلقاء نفسي. . .
ليت شُبّاكي بعيد كي أرى أمي
وليت القيد أقرب كي أحسَّ النبض في زندي
وليت البحر أبعد كي أخاف من الصحاري
آهِ، ليت الشيء عكس الشيء كي تتآكل الأشياء في
نفسي، وتأخذَ صيغة الفرح الحقيقيّ.
ابتعدنا واقتربنا وابتعدنا
يا أهالي الكهف قوموا واصلبوني من جديدِ
إنني آتٍ من الموت الذي يأتي غداً
آتٍ من الشجر البعيدِ
وذاهبٌ في حاضري ـ غدِكم.
أنا قشَّرتُ موجَ البحر زنبقةً لغزة. .

ـ ٦ ـ

سيلٌ من الأشجارِ يخرج من ضلوع الصخر ـ يصقلني
الفناءُ

وجدولٌ يمتد من صدري عموديّاً ـ وتنحدر السماءُ
رأيتُ رأي القلب ـ ذوَّبني الضياءُ
فصرت صوتاً، والحصى صار الصدى
وتنفَّس القبرُ القديمُ . . .
تحرَّك الحجرُ . . استردَّ دبيبَهُ منكم
أنا الأحياء والمدن القديمةُ
حاولوا أن تخلعوا أسماءكم تجدوا يديّ .
وحاولوا أن تنزعوا أثوابكم تجدوا دمي ،
أو حاولوا أن تحرقوا هذي الخرائط تبصروا جسدي ـ
أنا الأحياء والوطن الذي كتبوهُ في تاريخكم . .
من جثتي بدأ الغزاةُ، الأنبياءُ، اللاجئون ـ
والآن يختتمون سيرتهم لأبدأ من جديد .

ـ ٧ ـ

تتحرَّك الأحجارُ.
هذا ساعدي متمايل كالرعب
ليس الربُّ من سكّان هذا القفرِ
هذا ساعدي .
تتحرَّكُ الأَحجارُ،

ما سرقوا عصا موسى .
وإنَّ البحر أبعدُ من يدي عنكم
إذن، تتحرَّك الأحجارُ
إن طلعوا وإن ركعوا، وإن مرّوا وإن فرّوا ـ

أنا الحجرُ
أنا الحجرُ الذي مسَّتْهُ زلزلةٌ .
رأيتُ الأنبياء يؤجِّرون صليبهم
واسْتَأْجَرَتْني آيةُ الكرسيِّ دهراً، ثم صرت بطاقةً للتهنئات
تغيَّر الشهداءُ والدنيا
وهذا ساعدي .
تتحرك الأحجارُ
فالتفّوا على أسطورةٍ
لن تفهموني دون معجزةٍ
لأن لغاتكم مفهومَةٌ .
إن الوضوح جريمةٌ .
وغموض موتاكم هو الحقُّ ـ الحقيقةُ .
آه، لا تتحرك الأحجار إلّا حين لا يتحرك الأحياء
فالتفّوا على أسطورتي !

- ٨ -

لن تفهموني
تخرج العذراءُ من ضلعي
تكون مشيئتي
وأصابُ بالأمطار والبرق الذي أدمنتهُ
لن تفهموني
ناهضاً من قبركم
والأرضُ للشهداءِ -
أنهيتُ المغامرة الأخيرة وابتدأتُ :
هنا الخروج. هنا الدخولُ
هنا الذهاب. هنا الإيابُ
ولا مكان هنا
أنا الزمن الذي لن تفهموني خارج الزمن الذي ألقى
بكم في الكهفِ -
هذي ساعتي :
ينشقُّ قبرٌ ثم أنهض صارخاً :
لا تُوقفوني عن نزيفي
لحظةُ الميلاد تسكُنني من الأزلِ، استريحوا في جراحي -

ها هو الوطن الذي يتجَدَّدُ،
الوطن الذي يتمجَّدُ،
اقتربوا من الأشجار وابتدئوا معي !

- ٩ -

في غزةَ اختلفَ الزمان مع المكانِ
وباعةُ الأسماك باعوا فرصةَ الأمل الوحيد ليغسلوا
قدميّ
أين المجدلية ؟
ذابتْ أصابعها مع الصابون
وانهمرت كتاباتٍ كتاباتٍ
وكان الجندُ ينتصرون ينتصرون
كانوا يقرأون صلاتها
ويفتِّشون أظافرَ القدمين والكفين عن فَرحٍ فدائيّ،
وكانوا يُلحقون حياتها
بدموع هاجَرَ. كانت الصحراء جالسةً على جلدي.
وأولُ دمعة في الأرض كانت دمعةً عربية.
هل تذكرون دموع هاجر ـ أوَّلِ امرأةٍ بكتْ في
هجرة لا تنتهي؟

يا هاجَرُ، احتفلي بهجرتي الجديدةِ من ضلوع القبر
حتى الكون أنهضُ
يسكنُ الشهداءُ أضلاعي الطليقةَ
ثم أمتشق القبورَ وساحلَ المتوسطِ
احتفلي بهجرتيَ الجديدهْ.

النهر غريب وأنت حبيبي

الغريبُ النهرُ ـ قالتْ
واستعدَّتْ للغناءْ
لم نحاول لغة الحبِّ، ولم نذهب إلى النهر سدى
وأتاني الليلُ من منديلها
لم يأت ليلٌ مثل هذا الليل من قبل فَقَدَّمْتُ دمي للأنبياءْ
ليموتوا بدلاً منا. .
ونبقى ساعة فوق رصيف الغرباءْ
واستعدَّتْ للغناءْ.

وحدنا في لحظة العُشّاقِ
أزهار على الماءِ
وأقدام على الماءِ

إلى أين سنذهبْ ؟
للغزال الريحُ والرمحُ . أنا السكّين والجرحُ .
إلى أين سنذهب ؟
ها هي الحريَّةُ الحسناءُ في شريانيَ المقطوع ،
عيناكِ وبلدانٌ على النافذة الصغرى
ويا عصفورة النار، إلى أين سنذهبْ ؟
للغزال الريحُ والرمحُ ،
وللشاعر يأتي زَمَنٌ أعلى من الماء، وأدنى من حبال
الشَّنْقِ .
يا عصفورة المنفى ! إلى أين سنذهبْ ؟
لم أودّعك . فقد ودَّعتُ سطح الكرة الأرضيَّةِ الآنَ . .
معي أنت لقاء دائمٌ بين وداع ووداع .
ها أنا أشهدُ أن الحب مثل الموتِ
يأتي حين لا ننتظر الحبَّ،
فلا تنتظريني . . .

الغريبُ النهرُ ـ قالتْ
واستعدَّتْ للسّفَرْ .
الجهاتُ الستُّ لا تعرف عن «جانا»

سوى أنَّ المطرْ
لـم يُبَلّلها.
ولا تعرف عنها
غير أني قد تغيَّرتُ تغيَّرتُ
تَصَبّبْتُ بروقاً وشجرْ
وأسرتُ السندبادْ.
والغريبُ النهرُ ـ قالت
ها هو الشيء الذي نَسْكُتُ
قد صار بلادْ
ها هِي الأرض التي نسكُنُ
قد صارت سفر.
والغريبُ النهرُ ـ قالت
واستعدَّت للسفر.

وحدنا لا ندخل الليلَ
لماذا يتمنّى جسمُكِ الشّعر
وزهر اللوتس الأبعدَ من قبري
لماذا تحلمين
بمزيدٍ من عيون الشهداءِ ؟

اقتربي مني يزيدوا واحداً
«خبزي كفاف البرهة الأولى» . .
وأمضي نحو وقتي وصليب الآخرين .
وحدنا لا ندخل الليل سدى ،
يا أيها الجسم الذي يختصرُ الأرض ،
ويا أيتها الأرض التي تأخذ شكل الجَسَد الروحي
كوني لأكونْ .
حاولي أن ترسميني قمراً
ينحدرِ الليلُ إلى الغابات خيلاً
حاولي أن ترسميني حجراً
تمضي المسافاتُ إلى بيتيَ خيلاً
فلماذا تحلمين
بمزيدٍ من وجوه الشهداءِ ،
ابتعدي عنّي يصيروا أُمَّةً في واحد . . .
هل تحرقين الريح في خاصرتي ؟
أم تمتشقين الشمس ؟
أم تنتحرينْ ؟
عَلّمتني هذه الدنيا لُغَاتٍ وبلاداً غير ما ترسمه عيناكِ .

لا أفهم شيئاً منكِ. لا أفهمُني «جانا»
فلا تنتظريني !..

الغريبُ النهرُ ـ قالتْ
واستعدَّتْ للبكاءْ.
لم تكن أجملَ من خادمة المقهى
ولا أقرب من أمّي
ولكنَّ المساءْ
كان قِطّاً بين كفَّيها
وكان الأُفقُ الواسع يأتي من زجاج النافذهْ
لاجئاً في ظلّ عينيها
وكان الغرباءْ
يملأون الظلّ
لن أمضي إلى النهر سدى.
إذهبي في الحلم يا جانا !
بكتْ جانا
وكان الوقتُ يرميني على ساعة ماءْ
إذهبي في الوقت يا جانا !
بكت جانا

وكان الحُلْمُ ذرّاتِ هواءْ.
إذهبي في الفَرَح الأولِ يا جانا !
بكت جانا
وكان الجرحُ وردَ الشهداءْ.

آه، جانا
لم تكوني مُدُني
أو وطني
أو زمني
كي أوقف النهر الذي يجرفني
فلماذا تدخلين الآن جسمي
لتصيري النهرَ أو سيِّدةَ النهرِ
لماذا تخرجين الآن من جسمي
ومن أجلك جدَّدتُ الإقامهْ
فوق هذي الأرض.. جدَّدت الإقامهْ
إذهبي في الحُلْم يا جانا !
بكتْ جانا
وصار النهرُ زنّاراً على خاصرتي.
واختفى شكل السماءْ...

تأملات في لوحة غائبة

كأني على موعد دائم معها
ها هي الأرض تُكمل دورتها
ها هو الوقتُ يُثمر تفاحةً
نلتقي ؟
لم أجد غيرها امرأةً ذاهبةْ
لم أجد غيرها خنجراً قادماً.
كأنَّ خطاها مفاجأةُ الموتِ
تأتي مفاجِئةً
وكأني على موعدٍ دائم معها
تأخَّرتِ..
أسرعتِ..
إن فراغكِ ممتلىء قمراً

أحبُّكِ، أم أتنفَّسُ ؟
أنتَظِرُ الشّفتين، أم الصاعقهْ ؟
لجسمكِ صوتٌ يذكِّرني بالولادةِ
حين أموتُ
(ومن عادتي أن أموت كثيراً)
تأخرتِ.
أسرعتِ.
كالصاعقهْ !

. . . وأكتبُ عنك بلاداً
ويحتلّها الآخرون
وأرسمُ فيك جواداً
ويسرقه الآخرون
وأكتبُ
أرسمُ . .
كانت ذراعاك فاتحةَ الحزن والزهر
كنتُ أعود إلى الأرضِ
كنتُ
أصاهر في كفِّك الحجرا

وكانَ فراغُكِ ممتلئاً قمرا

كأني على موعد دائم معها
ها هي الأرض تكمل دورتها
ها هو الوقت يُثمر تفاحةً.
وللوقت كفٌّ تداعبني
مرةً،
وتقتلني
مرةً،
أيها الوقت كن يدها كي أراك
أيها
الوقت
كن
يدها
كي أراها..

بين حلمي وبين اسمه
كان موتي بطيئاً

باسمها أتراجَعُ عن حلمها. ووصلتُ أخيراً إلى
الحُلْم. كان الخريفُ قريباً من العشب. ضاع
اسمُها بيننا. . فالتقينا.
لم أسجِّل تفاصيل هذا اللقاء السريعِ. أحاول شرحَ
القصيدةِ كي أفهم الآن ذاك اللقاء السريع.
هي الشيءُ أو ضدُّهُ، وانفجارات روحي
هي الماءُ والنار، كنا على البحر نمشي.
هي الفرقُ بيني. . . وبيني.
وأنا حاملُ الإسم أو شاعر الحُلْم. كان اللقاء سريعاً.
أنا الفرقُ بين الأصابع والكفّ. كان الربيع
قصيراً. أنا الفرقُ بين الغصون وبين الشجرْ.
كنتُ أحْلمها، واسمُها يتضاءلُ. كانت تُسمّى

خلايا دمي. كنتُ أحْلمها
والتقينا أخيراً.
أحاول شرح القصيدة كي أفهم الآن ماذا حدث..

- يحمل الحُلْم سيفاً ويقتل شاعرَهُ حين يبلغهُ -
هكذا أخبرتني المدينةُ حين غفوتُ على ركبتيها
لم أكن حاضراً
لم أكن غائباً
كنتُ بين الحضور وبين الغيابْ
حَجَراً.. أو سحابهْ

- تشبهين الكآبةَ
قلت لها باختصار شديد
تشبهين الكآبهْ
ولكنَّ صدرك صار مظاهرة العائدين من الموتِ..
ما كنتُ جنديَّ هذا المكان
وثوريَّ هذا الزمان
لأحمل لافتةً، أو عصا، في الشوارعِ.
كان لقائي قصيراً

وكان وداعي سريعاً.
وكانت تصيرُ إلى امرأةٍ عاطفيهْ
فالتحمتُ بها
وحلمتُ بها
وصارت تفاصيلها وَرَقاً في الخريفِ
فلملمها عسكريُّ المرور
ورتّبها في ملف الحكومهْ
وفي المتحف الوطني
- تشبهين المدينَة حين أكون غريباً
قلت لها باختصار شديد
تشبهين المدينهْ.
هل رآك الجنود على حافّةِ الأرض
هل هربوا منكِ
أم رجموكِ بقنبلة يدويهْ؟

قالتِ المرأة العاطفيَّة :
كلُّ شيء يلامس جسمي
يَتَحَوَّلُ
أو يتشكَّلُ

حتى الحجارة تغدو عصافير.
قلت لها باكياً :

ولماذا أنا
أتشرَّدُ
أو أتبدَّدُ
بين الرياح وبين الشعوب ؟
فأجابت :
في الخريف تعود العصافير من حالة البحرِ
ـ هذا هو الوقتُ
ـ لا وقت

وابتدأتْ أغنيهْ :
في الخريف تعود العصافير من حالة البحر
هذا هو الوقتُ، لا وقتَ للوقتِ
هذا هو الوقتُ
ـ ماذا تكون البقيَّهْ ؟
ـ شبه دائرة أنتَ تُكملها
ـ أذهبُ الآن ؟
ـ لا تذهب الآن. إنَّ الرياح على خطأ دائماً.

والمدينة أقربْ.
ـ المدينةُ أقربُ !! أنتِ المدينةُ
ـ لستُ مدينهْ
أنا أمرأةٌ عاطفيهْ
هكذا قلتَ قبل قليلْ
واكتشفتَ الدليل
وأنت البقيَّهْ
ـ آه، كنتُ الضحيَّهْ
فكيفِ أكون الدليل ؟
وكنتُ أعانقها. كنت أسألها نازفاً :
أأنتِ بعيدهْ ؟
ـ على بُعْدِ حُلْم من الآن
والحُلْمُ يحمل سيفاً. ويقتل شاعره حين يبلغهُ
ـ كيف أكمل أغنيتي
والتفاصيل ضاعت. وضاع الدليل ؟
ـ انتهتْ صورتي
فابتدىء من ضياعك.

أموتُ ـ أحبُّكِ

إن ثلاثة أشياء لا تنتهي :
أنتِ، والحبُّ، والموتُ
قبَّلتُ خنجركِ الحلوَ
ثم احتميتُ بكفَّيكِ
أنْ تقتليني
وأن توقفيني عن الموتِ
هذا هو الحب.
إنّي أحبكِ حين أموت
وحين أحبُّكِ
أشعر أني أموتُ
فكوني امرأهْ
وكوني مدينهْ !
ولكن، لماذا سقطتِ، لماذا احترقتِ
بلا سَبَبٍ ؟
ولماذا ترهّلت في خيمة بدويَّهْ ؟
ـ لأنكَ كنتَ تمارس موتاً بدون شهيَّهْ
وأضافت، كأنَّ القَدَرْ
يتكسَّرُ في صوتها :

هل رأيت المدينةَ تذهبُ
أم كنتَ أنت الذي يتدحرج من شرفة اللّهِ
قافلةً من سبايا ؟
هل رأيتَ المدينةَ تهربُ
أم كنتَ أنت الذي يحتمي بالزوايا !

المدينةُ لا تسقطُ، الناس تسقط !.
ورويداً.. رويداً تفتَّت وجهُ المدينهْ
لم نحوِّل حصاها إلى لُغَةٍ
لم نُسَيِّجْ شوارعها
لم ندافع عن البابِ
لم ينضج الموتُ فينا.

كانت الذكرياتُ مقرّاً لحكّام ثورتها السابقة
ومرَّ ثلاثون عاماً
وألف خريف
وخمس حروب
وجئتُ المدينةَ منهزماً من جديد
كان سورُ المدينة يُشبهني
وقلتُ لها :

سأحاول حُبّكِ . .

لا أذكر الآن شكل المدينةِ

لا أذكرُ اسمي

ينادونني حَسَبَ الطقس والأمْزجهْ

لقد سقط اسمي بين تفاصيل تلك المدينةِ

لملمه عسكريُّ المرور

ورتَّبه في ملف الحكومهْ

ـ تشبهين الهويَّةَ حين أكون غريباً

تشبهين الهويَّة .

ـ ليس قلبي قرنفلةً

ليس جسمي حقلاً

ـ ما تكونين ؟

هل أنت أحلى النساءِ وأحلى المدنْ

ـ للذي يتناسل فوق السفنْ

وأضافت :

بين شوك الجبال وبين أماسي الهزائم

كان مخاضي عسيراً

ـ وهل عذَّبوكِ لأجلي ؟

ـ عذَّبوكَ لأجلي

ـ هل عرفتِ الندمْ؟

ـ النساء ـ المدن

قادراتٌ على الحبِّ، هل أنتَ قادر ؟

ـ أحاول حبَّك

لكنّ كل السلاسل

تلتفُّ حول ذراعيَّ حين أحاول. . .

هل تخونينني ؟

ـ حين تأتي إليّ

ـ هل تموتين قبلي ؟

سألتكِ : مُوتي !

ـ أيجديكَ مَوْتي ؟

ـ أصيرُ طليقاً

لأن نوافذ حُبّي عبوديَّةٌ

والمقابر ليست تثير اهتمام أَحَدْ

وحين تموتين

أكمل موتي .

بين حُلْمي وبين اسمِهِ

كان موتي بطيئاً بطيئاً.

أموت ـ أحبُّكِ
إنَّ ثلاثة أشياء لا تنتهي
أنتِ، والحبُّ، والموتُ
أن تقتليني
وأن توقفيني عن الموتِ.
هذا هو الحبّ
. . . وانتهتْ رحلتي فابتدأتُ
وهذا هو الوقتُ : ألّا يكون لشكلكِ وقتُ.
لم تكوني مدينهْ
الشوارعُ كانت قُبَلْ
وكان الحوار نزيفاً
وكان الجبلْ
عسكرياً. وكان الصنوبر خنجرْ.
ولا امرأةً كنتِ
كانت ذراعاكِ نهرين من جُثَثٍ وسنابلْ
وكان جبينُكِ بيدرْ
وعيناكِ نار القبائلْ

وكنتُ أنا من مواليد عام الخروج
ونسل السلاسلْ.

يحملُ الحلمُ سيفاً، ويقتل شاعرَهُ حين يبلغُهُ ـ
هكذا أخبرتني المدينةُ حين غفوتُ على ركبتيها
لم أكن غائباً
لم أكن حاضراً
كنتُ مختفياً بالقصيدهْ،
إذا انفجرت من دمائي قصيدهْ
تصير المدينةُ ورداً،
كنتُ أمتشق الحُلْمَ من ضلعها
وأحارب نفسي
كنتُ أعلن يأسي
على صدرها، فتصير امرأهْ
كنتُ أعلن حبي
على صدرها، فتصير مدينهْ
كنتُ أعلن أنَّ رحيلي قريب
وأنَّ الرياح وأنَّ الشعوب
تتعاطى جراحي حبوباً لمنع الحروب.

بين حلمي وبين اسمه
كان موتي بطيئاً
باسمها أتراجع عن حُلْمها. ووصلتُ
وكان الخريف قريباً من العشبِ.
ضاع اسمها بيننا.. فالتقينا.
لم أسجّل تفاصيل هذا اللقاء السريع
أحاول شرح القصيدهْ
لأغلق دائرة الجرح والزنبقهْ
وأفتح جسر العلاقة بين الولادة والمشنقهْ
أحاول شرح القصيدهْ
لأفهم ذاك اللقاء السريع
أحاول
أحاول.. أحاول!

طوبى لشيء لم يصل !

هذا هو العُرس الذي لا ينتهي
في ساحة لا تنتهي
في ليلة لا تنتهي
هذا هو العُرْسُ الفلسطينيُّ
لا يصل الحبيبُ إلى الحبيبْ
إلّا شهيداً أو شريدا

دَمُهم أمامي . .
يسكن اليوم المجاورَ ـ
صار جسمي وردةً في موتهمْ . .
وذبلتُ في اليوم الذي سَبَقَ الرصاصةَ
وازدهرتُ غداةَ أكملتِ الرصاصةُ جُثّتي

وجمعتُ صوتي كُلَّهُ لأكون أهدأ من دمٍ
غطّى دمي . . .

دَمُهم أمامي
يسكن المدنَ التي اقتربتْ
كأنَّ جراحهم سفنُ الرجوعِ
ووحدهم لا يرجعون . . .
دَمُهم أمامي . .
لا أراهُ
كأنه وطني
أمامي . . . لا أراهُ
كأنه طُرُقات يافا ـ
لا أراهُ
كأنه قرميد حيفا ـ
لا أراهُ
كأنَّ كُلَّ نوافذ الوطن اختفتْ في اللحمِ
وحدهمُ يرون
وحاسَّةُ الدم أينعتْ فيهم
وقادتهم إلى عشرين عاماً ضائعاً

والآن، تأخذ شكلها الآتي
حبيبتُهم..
وترجعهم إلى شريانها.

دَمهُم أمامي..
لا أراهُ
كأنَّ كل شوارع الوطن اختفتْ في اللحمِ
وحدهمُ يرون
لأنهمْ يتحررون الآن من جلد الهزيمةِ
والمرايا
ها همُ يتطايرون على سطوحهم القديمةِ
كالسنونو والشظايا
ها همُ يتحررون...

طوبى لشيء غامضٍ
طوبى لشيء لم يصل
فكّوا طلاسمه ومزّقهُمْ
فأرَّخْتُ البداية من خطاهم
(ها هي الأشجار تزهرُ
في قيودي)

وانتميت إلى رؤاهم
(ها هي الميناء تظهرُ
في حدودي)
والحلم أصدق دائماً. لا فرق بين الحلمِ
والوطن المرابط خلفَهُ...
الحلم أصدق دائماً. لا فرق بين الحلمِ
والجسد المخبَّأ في شظيَّهْ
والحلم أكثر واقعيَّهْ

السفحُ أكبر من سواعدهمْ
ولكنْ..
حاولوا أن يصعدوا
والبحر أبعد من مراحلهم
ولكن..
حاولوا أن يعبروا
والنجمُ أقرب من منازلهم
ولكن..
حاولوا أن يفرحوا
والأرضُ أضيقُ من تصورهم

ولكن . .
حاولوا أن يحلموا
طوبى لشيء غامض !
طوبى لشيء لم يصلْ
فكّوا طلاسمه ومزّقهم
فأرّخْتُ البداية من خطاهم

وانتميت إلى رؤاهم
آه . . يا أشياء ! كوني مبهمهْ
لنكون أوضح منك
أفلستِ الحواسّ وأصبحتْ قيداً على أحلامنا
وعلى حدودِ القدسِ ،

أفلست الحواسّ ، وحاسَّةُ الدم أينعت فيهم
وقادتهم إلى الوجه البعيد
هربت حبيبتهم إلى أسوارها وغزاتها
فتمردوا
وتوحدوا
في رمشها المسروق من أجفانهم
وتسلّقوا جدران هذا العصرِ

دقوا حائط المنفى
أقاموا من سلاسلهم سلالمْ
ليقبِّلوا أقدامها
فاكتظَّ شعبٌ في أصابعهم خواتمْ

هذا هو العرس الذي لا ينتهي
في ساحة لا تنتهي
هذا هو العُرسُ الفلسطينيُّ
لا يصل الحبيبُ إلى الحبيبْ
إلّا شهيداً.. أو شريدا

- من أي عامٍ جاء هذا الحزن ؟
- من سَنةٍ فلسطينيةٍ لا تنتهي
وتشابهتْ كل الشهور، تشابه الموتى
وما حملوا خرائط أو رسوماً أو أغاني للوطن
حملوا مقابرهم..
وساروا في مهمتهم
وسرنا في جنازتهم

وكان العالم العربيُّ أضيق من توابيت الرجوع.

أنراك يا وطني
لأن عيونهم رسمتْكَ رؤيا.. لا قضيَّهْ!
أنراك يا وطني
لأن صدورهم مأوى عصافير الجليل وماء وجه المجدليَّهْ!
أنراك يا وطني
لأن أصابع الشهداء تحملنا إلى صفدٍ
صلاةً.. أو هويَّهْ
ماذا تريد الآن منّا
ماذا تريد؟
خذهم بلا أجرٍ
ووزِّعهم على بيّارة جاعت
لعلَّ الخضرة انقرضت هناك..

الشيءُ.. أم هُمْ؟
إن جثة حارسٍ صمّامُ هاوية التردّي -
(هكذا صار الشعار، وهكذا قالوا)
ومرحلةٌ بأكملها أفاقتْ - ذات حلم -

من تدحرجها على بطن الهزيمة، (هكذا ماتوا)
وهذا الشيء.. هذا الشيء بين البحرِ
والمدن اللقيطة ساحلٌ لم يتَّسع إلاّ لموتانا،
ومروا فيه كالغرباء (ننساهم على مهل)
وهذا الشيء.. هذا الشيء بين البحرِ
والمدن اللقيطة حارسٌ تعبت يداه من الإشارةِ.
لم يصل أحدُ ومروا من يديه الآن
فاتسعتْ يداهُ
كلُّ شيء ينتهي من أجل هذا العرسِ..
مرحلة بأكملها أفاقت ـ ذات موتٍ ـ
من تدحرجها على بطن الهزيمهْ..

الشيءُ.. أم هُمْ ؟
يدخلون الآن في ذرات بعضهم،
يصير الشيء أجساداً،
وهم يتناثرون الآن بين البحر والمدن
اللقيطة
ساحلاً
أو برتقالا ـ

كلٌّ شيء ينتهي من أجل هذا العرسِ..
مرحلة بأكملها... زمانٌ ينتهي
هذا هو العرس الفلسطينيّ
لا يصل الحبيب إلى الحبيب
إلّا شهيداً أو شريدا.

موت آخر .. وأحبك

- ١ -

أجدِّدُ يوماً مضى، لأحبُّكِ يوماً. . . وأمضي
وما كان حباً
لأن ذراعيَّ أقصر من جبل لا أراهْ
وأكمل هذا العناق البدائيَّ، أصعد هذا الإلهَ
الصغير. .
وما كان يوماً
لأن فَراش الحقول البعيدةِ ساعةُ حائطْ
وأكمل هذا الرحيل البدائيَّ، أصعد هذا الإلهَ
الصغير
وما كنتِ سيدة الأرض يوماً

لأن الحروب تلامس خصرك سرب حمامْ
وتنتشرين على موتنا أُفقاً من سلامْ
يسد طريقي إلى شفتيك، فأصعد هذا الإلهَ
الصغير
وما كنتُ ألعب في الرمل لهواً
لأن الرذاذ يكسِّرني حين تعلن عيناكِ
أن الدروب إلى شهداء المدينة مقفرةٌ من يديكِ
فأصعد هذا الإله الصغير..
وما كان حباً
وما كان يوماً
وما كنتُ
وما كنتِ
إني أجدد يوماً مضى
لأحبك يوماً
وأمضي...

- ٢ -

سألتُكِ أن ترتديني خريفاً ونهراً
سألتك أن تعبري النهر وحدي

وتنتشري في الحقول معاً.
سألتك ألا أكون وألا تكوني
سألتك أن ترتديني
خريفاً
لأذبل فيك، وننمو معاً.
سألتك ألا أكون وألا تكوني
سألتك أن ترتديني
نهراً
لأفقد ذاكرتي في الخريف
ونمشي معاً.

وفي كل شيء نكون
يوحِّدنا ما يُشتِّتنا
ليس هذا هو الحبُّ
في كل شيء نكون
يجددنا ما يفتّتنا
ليس هذا هو الحبُّ ـ
هذا أنا..
أجيئكِ منك، فكيف أحبك؟

كيف تكونين دهشة عمري ؟
وأعرف :
أن النساء تخون جميع المحبين إلاّ المرايا
وأعرف :
أن التراب يخون جميع المحبين إلاّ البقايا
أَجيئك منك انتظاراً
وأغرق فيك انتحاراً
أجيئكِ منك انفجاراً
وأسقط فيك شظايا . .
وكيف أقول أحبك ؟

كيف تحاول خمس حواسّ مقابلة المعجزهْ
وعيناك معجزتان ؟
تكونين نائمة حين يخطفني الموجُ
عند نهاية صدرك يبتدىء البحرُ

ينقسم الكون هذا المساء إلى إثنين :
أنتِ ومركبة الأرض.
من أين أجمع صوت الجهات لأصرخ :
إني أحبك

- ٣ -

تكونين حريتي بعد موت جديد
أحبّ
أجدِّد موتي
أودِّع هذا الزمان وأصعد
عيناك نافذتان على حلم لا يجيء
وفي كل حلم أرمِّم حلماً وأحلمُ
قالت مريّا : سأهديكَ غرفة نومي
فقلتُ : سأهديكِ زنزانتي يا مريّا
ـ لماذا أحبكَ ؟
* من أجل طفل يؤجِّل هجرتنا يا مريّا
ـ سأهديكَ خاتم عرسي
* سأهديكِ قيدي وأمسي
ـ لماذا تحاربُ ؟
* من أجل يوم بلا أنبياء .
تكونين جندية . تغلقين طريقي . تقولين : ما اسمك ؟
أعلن أني أمشط موج البحار بأغنيتي ودمي
كي تكوني مريّا .

ـ إلى أين تذهب ؟
* أذهب في أول السطر. لا شيء يكتمل الآن
ـ هل يلعب الشهداء بأضلاعهم كي تعود مريّا ؟
* تعود، وهم لا يعودون
ـ هل كنتَ فيهم ؟
* وعدت لأنيَ نصف شهيد
لأني رأيت مريّا.
ـ سأهديكَ غرفة نومي
* ساهديكِ زنزانتي يا مريّا.

- ٤ -

غريبان
إن القبائل تحت ثيابي تهاجرُ
والطفل يملأ ثنية ركبتكِ
الآن أعلن أن ثيابك ليست كفن

غريبان
إن الجبال الجبال الجبال....

غريبان
ما بين يومين يولد يوم جديد لنا
وماذا نسميه

قلنا : وطن
غريبان
إن الرمال الرمال الرمال. . . .

غريبان
والأرض تعلن زينتها
ـ أنت زينتُها ـ
والسماء تهاجر تحت يدين

غريبان
إن الشمال الشمال الشمال. . . .

غريبان
شعركِ سقفي، وكفاك صوتان
أقبِّل صوتاً
وأسمع صوتاً
وحبك سيفي
وعيناك نهران
والآن أشهد أن حضورك موت

وأن غيابك موتان
والآن أمشي على خنجر وأغني
فقد عرف الموت أني
أحبك، أني
أجدد يوماً مضى
لأحبك يوماً
وأمضي . .

- ٥ -

سمعتُ دمي ، فاستمعتُ إليكِ
ولم تَصِلي بعدُ
كان البنفسج لون الرحيل
وكنت أميل مع الشمس -
يا أيها الممكن المستحيل
وكانت ظلال النخيل تغطي خطانا التي تتكونُ
منذ الصباح وأمسٍ .
وكنا نميل مع الشمس،
كنتُ القتيل الذي لا يعود
نسيتُ الجنازة خلف حدود يديكِ

سمعت دمي، فاستمعت إليك. .
إلى أينَ أذهب ؟
ليست مفاتيح بيتي معي
ليس بيتي أمامي
وليس الوراء ورائي
وليس الأمام أمامي
إلى أين أذهب ؟
إن دمائي تطاردني، والحروب تحاربني، والجهات
تفتشني عن جهاتي
فأذهب في جهة لا تكون
كأنَّ يديك على جبهتي لحظتانِ
أدور أدور
ولا تذهبانِ
أسيرُ أسيرُ
ولا تأتيانِ
كأن يديك أبد
آه، من زمن في جسد !

يعرف الموت أني أحبُّكِ

يعرف وقتي

فيحمل صوتي

ويأتيك مثل سعاة البريد

ومثل جباة الضرائبِ

يفتح نافذة لا تطل على شجرٍ

(قد ذهبتُ ولم أعترف).

يعرف الموت أني أحبك..

يستجوب القبلة النصفَ..

تستقبلين اعترافي..

وتبكين زنبقةً ذبلت في الرسالةِ

ثم تنامين وحدكِ وحدكِ وحدكِ

يشهق موت بعيد

ويبقى بعيد

إلى أين أذهب ؟

إنَّ الجداول باقية في عروقي

وإن السنابل تنضج تحت ثيابي

وإن المنازل مهجورة في تجاعيد كفي

وإن السلاسل تلتفُّ حول دمي

وليس الأمام أمامي

وليس الوراء ورائي

كأن يديك المكان الوحيد.

كأن يديك بلد

آه من وطن في جسد !

- ٦ -

وصلتُ إلى الوقت مبتعدا

لم يكن بلدا

كي أقول وصلتُ

وما كان ـ حين وصلتُ ـ سدى

كي أقول تعبتُ

وما كان وقتاً لأمضي إليه . .

وصلت إلى الوقت مبتعدا

لم أجد أحدا

غير صورتها في إطار من الماءِ

مثل جبيني الذي ضاع بيني

وبين رؤايَ سدى !

سمعتُ دمي

فاستمعتُ إليك
مشيتُ
لأمشي إليك

وكانت عصافيرُ ملء الهواء
تسير ورائي
وتأكلني ـ كنتُ سنبلةً ـ
كنت أحمل ضلعاً وأسأل أين بقيتُهُ
آخرُ الشهداء
يحاول ثانيةً
كيف أحمل نهراً بقبضة كفي
وأحمل سيفي
ولا يسقطان
أنا آخر الشهداء.
أسجل أنك قديسةٌ في الزمان، وضائعة
في المكان
أُريد بقية ضلعي
أُريدُ بقية ضلعي
أُريد بقية ضلعي

عودة الأسير

النيلُ ينسى
والعائدون إليكِ منذ الفجر لم يَصِلُوا
هناك حمامتان بعيدتان
ورحلةٌ أخرى
وموتٌ يشتهي الأسرى
وذاكرتي قويَّهْ.
والآن، ألفظُ قبل روحي
كلَّ أرقام النخيل
وكلَّ أسماء الشوارع والأزقَّة سابقاً أو لاحقاً
وجميعَ مَنْ ماتوا بداء الحب والبلهارسيا والبندقيَّهْ
ما دَلني أحدٌ عليكِ
وأنتِ مصرْ

قد عانقتني نَخْلةٌ
فتزوَّجَتْني
شَكَّلَتْني
أنجَبَتْني الحبَّ والوطن المعذّبَ والهويَّهْ.
ما دلّني أحَدٌ عليكِ
وجدتُ مقبرةً. . . فنمتُ
سمعتُ أصواتاً. . . فقمتُ
ورأيتُ حرباً. . فاندفعتُ
وما عرفتُ الأبجديَّهْ.
قالوا : اعترفْ
قلتُ : اعترفتْ
يا مصر ! لا كِسرى سباكِ ولا الفراعنةُ
اصطفوكِ أميرةً أو سيِّدةْ !
قالوا : اعترف
قلت : اعترفتْ
وتوازت الكلماتُ والعضلاتُ
كانوا يقلعون أظافري
ويُقَشِّرون أناملي

ويبعثرون مفاصلي
ويفتِّشون اللحمَ عن أسرار مصرْ . .
وتدفّقت مصرُ البعيدةُ من جراحي
فاقتربتْ
ورأيتُ مصر
وعرفتُ مصر .
ما دلّني أحدٌ ، خناجرهم تفتِّشني فيخرج شكلُ مصر .
يا مصر ! لستِ خريطةً
قالوا : اعترفْ
قلت : اعترفتْ
واصلتُ يا مصر اعترافاتي
دمي غطّى وجوه الفاتحينَ
ولم يغطِّ دمي جبينَكِ ، واعترفتُ
وحائطُ الإعدام يحملني إليك إليكِ . . .
أنتِ الآن تقتربين . أنت الآن تعترفينَ
فامتشقي دمي ! .

والنيلُ ينسى
ليس من عاداته أن يُرجع الغرقى

وآلافُ العرائس مَنْ تقاضى أجرها ؟
النيل ينسى.
والقرى رفعتْ مآذنها وشكواها
وأخفتْ صدرها في الطينِ. ..
والمدنُ ـ الجنودُ الغائبون ـ الاتحادُ الاشتراكيُّ ـ المغني
راقصاتُ البطن ـ والسيّاحُ ـ والفقراءُ
سبحان الذي يعطي ويأخذُ !
ليس من عادات هذا النيل أن يصغي إلى أحدٍ
كأنَّ النيل تمثالٌ من الماء استراح إلى الأبد.

ماذا يقول النيلُ
لو نطقتْ مياه النيلِ ؟
يسكت مرّةً أخرى
وينساني . . .
لتسكتْ جوقة الإنشاد حول جنازتي !
وخذي عن الجثمان أعلامَ الوطن
يا مصر ! تحيا مصر. . تحيا مصر. . تحيا مصرُ
غطّي حفنة من رمل سيناء التي ابتعدتْ عن العينين
والتجأتْ إلى الرئتين

وامتشقي دمي

وخذي عن الجثمان أعلام الوطن

سيناء ليس لها كفن !

والنيلُ ينسى

ماذا يقول النيلُ، لو نطقتْ مياهُ النيلِ ؟

يسكت مرةً أخرى

ولا يستقبل الأسرى.

ليسكت ههنا الشعراءُ والخطباءُ

والشّرطيُّ والصحفيُّ

إنّ جنازتي وصلتْ

وهذي فرصتي يا مصرُ. . أعطيني الأمان

يا مصر ! أعطيني الأمان

لأموتَ ثانيةً. . شهيداً لا أسيرْ

السدُّ عالٍ شامخ، وأنا قصير

والمنشآت كبيرةٌ، وأنا صغير

والأغنيات طليقةٌ، وأنا أسير

يا مصر ! أعطيني الأمان

إني حرستُك. كانت الأشياء آمرةً وآمنةً وكان المطربُ

الرسميُّ يصنع من نسيج جلودنا وَتَرَ الكمان
ويُطْربُ المتفرِّجين.
قد زيَّفوا يا مصر حنجرتي
وقامةَ نخلتي
والنيل ينسى
والعائدون إليك منذ الفجر لم يَصِلوا
ولستُ أقول يا مصر الوداع
شَبَّتْ خيول الفاتحين
زرعوا على فمك الكروم، فأينعتْ
قد طاردوكِ ـ وأنتِ مصر
وعذَّبوكِ ـ وأنت مصر
وحاصروكِ ـ وأنت مصر
هل أنت يا مصر؟
هل أنت.. مصر!.

الرمادي

الرماديُّ اعترافٌ. والسماءُ الآن ترتدُّ عن الشارع
والبحر، ولا تدخل في شيء، ولا تخرج من
شيء. . . . ولا تعترفينْ

ساعتي تسقط في الماء الرماديّ. فلم أذهب إلى موعدكِ
الساطعِ. يأتي زَمَنٌ آخرُ إذ تنتحرين.
وأُسمّي حادثاً يحدث في أيّامنا :
قد ذَهَبَ العمر، ولم أذهب مع العمر إلى هذا المساء
وسأبقى في انتظاركْ.
وأُسمّي حادثاً يحدث في أيامهمْ :
عندما أمشي إلى النهر البعيدْ
يقف النهرُ طويلاً في انتظاري.

وأُتابعْ :
عندما أرجع في منتصف الموت، يجفُّ النهرُ في ذاكرتي
يذبلُ ما بين الأصابعْ.

فلماذا تقفينْ ؟

ولماذا تقفينْ ؟

وتكونين أمامَ الطعنة الأولى. أمام الخطوة الأولى....
ولا تعترفين.
والرماديُّ اعترافٌ. مَنْ رآني قد رأى وجهكِ ورداً
في الرمادْ.
مَنْ رآني أخرَجَ الخنجر من أضلاعه، أو خبَّأ الخنجر
في أضلاعهِ.
حيث تكونين دمي يمطر، أو يصعد في أيِّ اتجاهٍ
كالنباتات البدائيةِ.

كوني حائطي
كي أبلغ الأفْقَ الرماديَّ
وكي أجرح لون المرحلهْ
من رآني ضاع منّي
في ثياب القَتَلَهْ !

الرماديَّ اعترافٌ وشبابيكٌ. نساءٌ وصعاليكُ
والرماديُّ هو البحر الذي دَخَّنَ حُلْمي زَبَدا
والرماديُّ هو الشّعر الذي أجّر جرحي بلدا
الرماديُّ هو البحرُ
هو الشّعرُ
هو الزهرُ
هو الطيرُ
هو الليلُ
هو الفجرُ
الرماديُّ هو السائرُ والقادمُ
والحلم الذي قَرَّره الشاعرُ والحاكمُ
منذ اتّحدا!.

لستُ أعمى لأرى
لستُ أعمى... لأرى
إنّني أعبرُ بين الجُثّتين القمَّتيْن
كالنباتات البدائيَّةِ
كوني حائطي كي أعبُرا.
لستُ أعمى.. لأرى.

تزحفُ الصحراء. تلتفُّ على خاصرتي. تمتدُّ تمتدُّ،
وتلتفُّ على صدري، وتشتدُّ وتشتدُّ، ولا أغرق. .
لا أغرق. . لا أغرقُ
لا ! .
ليس لي خلف جبال الرمل آبارٌ من النفط، ولا صفصافة
مستشرقهْ.
كان لي سورةُ «اقرأ» وقرأتُ. . .
كان لي بذرةُ قمح في يدٍ محترقهْ
واحترقتْ.
وليَ الآن شتاءٌ من دم يمتصُّه الرمل، ويُستخرج
مازوتاً. وأُسْتَدْعَى إلى الحرب لكي يصبح سعرُ
النفط أعلى.
قلت: كلّا !
والرماديُّ اعترافٌ مثل جدران الزنازين التي تكثر بعد
الحرب. لا. لم يبكِ جنديٌّ على تاجٍ. وأُسْتَدْعَى
إلى الحرب لكي يصبح لون التاج أغلى.
لستُ أعمى. . لأرى.
هل تركتِ الباب مفتوحاً؟

تعودين بلا جدوى . .
ينام الحُلُم الكاذبُ في المخفرِ . يُدلي باعترافاتٍ .
يمرُّ الحلُم الهاربُ من قُبَّعة السجّان . يُدلي
باعترافاتٍ على مائدة القرصان ؛
يُدلي باعترافاتٍ . يَنامُ الحُلُم الغائبُ تحت المشنقهْ .
هل تركت الباب مفتوحاً ؟
لكي أقفز من جلدي إلى أوَّل عصفور رماديّ ، وأحتجُّ
على الآفاق :
كلا ! .
الرماديُّ من البحر إلى البحرِ
وحُرّاسُ المدى عادوا
وعيناكِ أمامي نقطتانْ
والسرابُ الضوءُ في هذا الزمانِ
الواقفِ الزاحفِ ما بين وداعين طويلين
ونحن الآن ما بين الوداعين وداعٌ دائمٌ
أنتِ السرابُ ـ الضوءُ ، والضوءُ ـ السرابْ
مَنْ رآنا أخرج الخنجر من أضلاعه ، أو خَبَّأ الخنجر
في أضلاعِهِ .

حيث تكونين دمي يمطر أو يصعدُ في أي اتجاه

كالنباتات البدائيةِ

كوني حائطي أو زمني

كي أطأَ الأفقَ الرماديَّ

وكي أجرح لون المرحلهْ

مَنْ رآنا ضاع منّا

في ثياب القَتَلَهْ

فاذهبي في المرحلهْ

إذهبي

وانفجري بالمرحلهْ !.

طريق دمشق

من الأزرق ابتدأ البحرُ. . .
هذا النهار يعود من الأبيض السابقِ. . .
الآن جئتُ من الأحمر اللاحقِ. . .
اغتسلي يا دمشق بلوني
ليُولَدَ في الزمن العربيِّ نهار.

أحاصركم : قاتلاً أو قتيلْ
وأسألكم، شاهداً أو شهيدْ :
متى تفرجون عن النهر، حتى أعود إلى الماء أزرقَ
أخضر
أحمرَ
أصفرَ أو أي لون يحدِّده النهرُ
إنّي خرجتُ من الصيف والسيفِ

إنّي خرجتُ من المهد واللحدِ
نامت خيولي على شجر الذكرياتِ
ونمتِ على وتر المعجزاتِ
ارتدتني يداكِ نشيداً إذا أنزلوه على جبل، كان سورةَ
«ينتصرون» . . .
دمشق، ارتدتني يداك، دمشق ! ارتديت يديك،
كأنّ الخريطة صوتٌ يُفرِّخ في الصخرِ
نادى . . . وحركني
ثم نادى . . . وفجَّرني
ثم نادى . . وقطّرني كالرخام المذاب
ونادى.
كأن الخريطة أُنثى مُقَدَّسةٌ فجَّرتني بكارتُها، فانفجرتُ
دفاعاً عن السرِّ والصخرِ
كوني دمشق
فلا يعبرون !

من البرتقاليِّ يبتدىء البرتقالُ
ومن صمتها يبدأ الأمسُ

أو : يولد القبرُ
يا أيها المستحيل. . . يسمونك الشامَ !
أفتحُ جرحي لتبتدىء الشمسُ. ما اسمي ؟ دمشق. .
وكنت وحيداً.
ومثليَ كان وحيداً هو المستحيل.
أنا ساعة الصفر دقَّتْ
فشقَّت
خلايا الفراغ على سرج هذا الحصان
المحاصر بين المياه
وبين المياه.
أنا ساعة الصفر
جئت أقول :
أحاصرهم قاتلاً أو قتيل
أعدُّ لهم ما استطعتُ. . وينشقُّ في جثتي قمرُ المرحلهْ
وأمتشق المقصلهْ
أحاصرهم : قاتلاً أو قتيل
وأنسى الخلافة في السفر العربيِّ الطويل
إلى القمح والقدس والمستحيل

يؤرِّخني خنجران :
العدوُّ
وعورةُ طفل صغير تسمّونهُ
بردى
وسمَّيته مبتدا
وأخبرته أنني قاتل أو قتيل.

«من الأسود ابتدأ الأحمرُ . . ابتدأ الدمُ» .
هذا أنا. هذه جثتي
أيّ مرحلة تعبر الآن بيني وبيني !
أنا الفرق بينهما
همزة الوصل بينهما
قبلة السيف بينهما
طعنة الورد بينهما
آه، ما أصغر الأرضَ !
ما أكبر الجرحَ . .
مُرّوا
لتتَّسع النقطةُ، النطفةُ، الفارقُ،
الشارعُ، الساحلُ، الأرضُ. . .

ما أكبرَ الأرضَ !

ما أصغرَ الجرحَ

هذا طريق الشام . . . وهذا هديل الحمام

وهذا أنا. هذه جثتي .

والتحمنا

فمُرّوا . .

خذوها إلى الحرب كي أنهيَ الحرب بيني وبيني

خُذوها . . . أحرقوها بأعدائها

أنزلوها على جبل غيمةً أو كتاباً

ومُرّوا . . .

ليتسع الفرق بيني وبين اتهامي

طريق دمشق

دمشق الطريق

ومفترق الرسل الحائرين أمام الرماديّ

إني أغادر أحجاركم ـ ليس مايو جدارا

أغادر أحجاركم وأسير

وراء دمي في طريق دمشق

أحارب نفسي . . . وأعداءها .

ويسألني المتعبون، أو المارة الحائرون عن اسمي
فأجهلهُ . .
اسألوا عشبة في طريق دمشق !
وأمشي غريباً .
وتسألني الفتيات الصغيرات عن بلدي
فأقول : أفتش فوق طريق دمشق .
وأمشي غريباً .
ويسألني الحكماء المملون عن زمني
فأشير إلى حجر أخضر في طريق دمشق .
وأمشي غريباً .
ويسألني الخارجون من الدير عن لغتي
فأعدُّ ضلوعي وأخطىء
إنِّي تهجَّيتُ هذي الحروف . فكيف أركِّبها ؟
دال . ميم . شين . قاف .
فقالوا : عرفنا ـ دمشق !
ابتسمتُ . شكوتُ دمشق إلى الشام :
كيف محوت ألوف الوجوه
وما زال وجهكِ واحدْ !

لماذا انحنيت لدفن الضحايا
وما زال صدركِ صاعدْ !
وأمشي وراء دمي . وأطيع دليلي
وأمشي وراء دمي نحو مشنقتي
هذه مهنتي يا دمشق . .
من الموت تبتدئين . وكنت تنامين في قاع صمتي ولا
تسمعين . .

وأعددتِ لي لغةً من رخام وبرق .
وأمشي إلى بردى ، آه مستغرقاً فيه أو خائفاً منه . .
إنَّ المسافة بين الشجاعةِ والخوفِ
حُلْمٌ
تجسَّد في مشنقهْ
آه ، ما أوسع القبلة الضيِّقهْ !
وَأَرَّخَني خنجران :
العدوُّ
ونهر يعيش على مَهَلٍ .
هذه جثتي ، وأنا
أفقٌ ينحني فوقكم

أو حذاء على الباب يسرقه النهرُ
أقصد :
عورةَ طفل صغير يسمّونه
بَرَدى
وسميته مبتدا
وأخبرته أنني قاتل أو قتيل .

تُقَلِّدني العائدات من النَّدَم الأبيضِ
الذاهباتُ إلى الأخضر الغامضِ
الواقفاتُ على لحظة الياسمين .
دمشق ! انتظرناكِ كي تخرجي منك
كي نلتقي مرة خارجَ المعجزات
انتظرناكِ . . .
والوقت نام على الوقتِ
والحب جاء ، فجئنا إلى الحربِ
نغسل أجنحة الطير بين أصابعك الذهبيَّةِ
يا امرأة لونها الزبد العربيُّ الحزين .
دمشق الندى والدماءِ
دمشق النداء

دمشق الزمان
دمشق العرب !
تُقَلِّدني العائداتُ من النَّدَم الأبيضِ
الذاهباتُ إلى الأخضر الغامضِ
الواقفاتُ على ذبذبات الغضب
ويحملك الجند فوق سواعدهم
يسقطون على قدميك كواكبَ
كوني دمشقَ التي يحلمون بها
فيكون العرب.

قلتُ شيئاً، وأُكمله يومَ موتي وعيدي :
من الأزرق ابتدأ البحرُ
والشام تبدأ مني ـ أموت
ويبدأ في طرق الشام أسبوعُ خَلْقي
وما أبعد الشام، ما أبعد الشام عني !
وسيف المسافة حزَّ خطاياي... حز وريدي
فقرَّبني خنجران :
العدوُّ وموتي
وصرتُ أرى الشام... ما أقرب الشام مني

ويشنقني في الوصول وريدي.

وقد قلتُ شيئاً، وأُكملُهُ :
كاهنُ الاعترافات ساومني يا دمشقُ
وقال : دمشق بعيدهْ
فكسَّرْتُ كرسيّهُ، وصنعتُ من الخشب الجبلي صليبي
أراك على بُعْدِ قلبين في جسدٍ واحدٍ
وكنتُ أطلُّ عليك خلال المسامير
كنتِ العقيدهْ
وكنتُ شهيد العقيدهْ.
وكنتِ تنامين داخل جرحي
وفي ساعة الصفر، تمَّ اللقاء
وبين اللقاء وبين الوداع
أودِّعُ موتي . . . وأرحلُ.
ما أجملَ الشامَ، لولا الشامُ، وفي الشامِ
يبتدىء الزمن العربيُّ وينطفىء الزمن الهمجيُّ
أنا ساعة الصفر دقتْ
وشقّتْ
خلايا الفراغ على سطح هذا الحصان الكبير الكبيرِ

الحصان المحاصر بين المياه

وبين المياه

أعِدُّ لهم ما استطعتُ..

وينشقُّ في جثتي قمرٌ... ساعةُ الصفر دَقَّتْ،

وفي جثتي حبَّة أنبتت للسنابلِ

سبع سنابلَ، في كل سنبلةٍ ألفُ سنبلةٍ...

هذه جثتي.. أفرغوها من القمح ثم خذوها إلى الحربِ

كي أنهي الحرب بيني وبيني

خذوها، أحرقوها بأعدائها

خذوها ليتسع الفرق بيني وبين اتهامي

وأمشي أمامي

ويولد في الزمن العربي... نهار.

صمم الغلاف : الفنان نبيل قدوح